المملكـة المغربيـة
وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني
والتعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سيـدي محـمد بـن عبـد اللـه-فاس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز.فاس

Royaume du Maroc
Ministère de l'Education Nationale, de la Formation Professionnelle, de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
Université Sidi Mohamed Ben Abdellah- Fès
Faculté des Lettres et Sciences Humaines- Dhar Mehraz,

مسلك التاريخ والحضارة/ شعبة التاريخ

الأستاذ: المصطفى طهر

السنة الجامعية 2019-2020

وحدة: التاريخ البحري

الفصل السادس

البحرية المرينية (منتصف القرن 7ه/13م – منتصف القرن 8ه/14م)

أ- الأسطول المريني في نهاية القرن 7ه وبداية القرن 8ه/13-14م :

في سنة 658ه/1260م تعرضت مدينة سلا للاحتلال القشتالي لمدة 14 يوما، وبمجرد تحريرها حرص السلطان المريني أبو يوسف يعقوب على تحصينها من جهة النهر وعلى بناء دار لإنشاء المراكب، وأسند هذه المهمة الأخيرة للعارف والمهندس محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الإشبيلي الذي اشتهر بخبرته في " الحيل الهندسية، ومهارته في نقل الأجرام، وبصيرته في صناعة الآلات الحربية الجافية

(السفن) واستخدامها "(ابن الخطيب، الإحاطة؛ ابن القاضي، جدوة الأقتباس). وقد ترك لنا محمد بن علي الدكالي (الاتحاف الوجيز) وصفا لترسانة سلا قال فيه: ***"دارالصناعة بناء حفيل قبلي سلا من جهة*** *واديها* **له بابان كان الوادي يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر بصناعة هندسية وقواعد علمية. وذلك أنه (ابن الحاج) جلب الماء من الوادي إلى الباب المسامت لجامع حسان من العدوة الأخرى في ترعة عميقة، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذا المحل وأريد إرسالها في الوادي فتحت الترعة المذكورة فيدخل الماء وتعوم السفينة، فتخرج من الباب القبلي سابحة على وجه الماء إلى أن تقع في الوادي. ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جدا نحو المائة قدم ليخرج المركب منشور القلاع".**

لكن، رغم تأسيس ترسانة سلا، ظل الأسطول المريني طيلة النصف الثاني من القرن 7هـ/13م ضعيفا. وخير دليل على ذلك أن السلطان يعقوب اعتمد سنة 1274 على 20 سفينة وضعها تحت تصرفه حاكم سبتة أبو القاسم العزفي لنقل القوات المرينية إلى الضفة الشمالية لمضيق جبل طارق. كما أن الأسطول (72 مركب) الذي حقق النصر في المعركة البحرية ضد الأساطيل المسيحية (100 سفينة) التي كانت تحاصر الجزيرة الخضراء عام 678هـ/1279م لم يكن يضم سوى 15 سفينة مرينية جهزت في مراسي طنجة وسلا وبادس وأنفا (الدار البيضاء)، في حين كانت معظم المراكب في ملكية أبي القاسم العزفي حاكم سبتة (45 سفينة) ومحمد الثاني سلطان غرناطة (12 سفينة).

وقد أدت وفاة السلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة 685هـ/1286م إلى تراجع حيوية البحرية المرينية وتراجع السياسة الجهادية للمرينيين، فقد ظهر ذلك جليا خلال السنوات الأولى من حرب المضيق، إذ تذكر المصادر أن الأسطول القشتالي ألحق سنة 690هـ/1291م الهزيمة بأسطول السلطان أبي يوسف يعقوب عند محاولة هذا الأخير عبور المضيق من قصر المجاز (القصر الصغير) إلى طريف. وفي عام 691هـ/1292م، وبعد حصار بري (قشتالي – نصري) وبحري شاركت فيه أساطيل قشتالة وآراغون، استولى القشتاليون (الإسبان) على قاعدة طريف في الضفة الشمالية

الغربية لمضيق جبل طارق، بل أدى انشغال أبي يعقوب يوسف بحصار تلمسان إلى انتزاع الأسطول النصري قاعدة سبتة من حكامها العزفيين سنة 705هـ.

ولا شك في أن استيلاء حكام غرناطة النصريين على سبتة كان ضربة موجعة للسياسة البحرية المرينية حيث اضطر المرينيون إلى الاعتماد بشكل كبير على دار الإنشاء بسلا في بناء المراكب وتجهيزها إلى أن استعادوا قاعدة سبتة عام 709 للهجرة/1309م في ظل حكم السلطان أبي الربيع سليمان. وقد كانت فترة الخلاف المريني- النصري حول سبتة فرصة استغلها المسيحيون لمحاولة بسط نفوذهم على قواعد بحر الزقاق حيث حاصرت الجيوش والأساطيل الأراغونية ثغر ألمرية، وفرض القشتاليون حصارا بريا وبحريا على الجزيرة الخضراء وقاعدة جبل طارق، وهو الحصار الذي توج بسقوط مدينة وميناء جبل طارق في يد القشتاليين سنة 709هـ.

لمواجهة الأخطار الخارجية رفع السلطان أبو سعيد عثمان من وتيرة بناء السفن حيث يذكر ابن أبي زرع (الأنيس المطرب) أن **أمير المسلمين عثمان خرج في ربيع شهر ذي القعدة (710هـ) من مدينة فاس إلى رباط الفتح (** مدينة الرباط الحالية**) برسم التفقد لأمور رعيته والنظر في أحوال بلاد الأندلس وإنشاء الأجفان لغزو العدو، فوصلوها في أخر ذي القعدة** (يوم الثلاثاء 20 أبريل 1312م)، **فعيد بها عيد الأضحى وأصلح أحوالها وأمر بإنشاء الأجفان في بحرها، ورجع إلى فاس** ". وتابع أبو سعيد جهوده في مجال إنشاء المراكب الغزوية والمساهمة في الجهاد البحري خلال السنوات اللاحقة، إذ يقول ابن أبي زرع: " **في سنة إحدى عشر وسبعمئة (** 711هـ/1313م) **ولى عثمان أخاه الأمير يعيش الجزيرة (الخضراء) ورندة وأحوازهما من بلاد الأندلس، وأمر بإنشاء الأجفان بدار صناعة مدينة سلا برسم غزو الروم** ". واستمر أبو سعيد عثمان في تثمين سياسة الجهاد البحري ضد المسيحيين، ففي سنة 714هـ أسند السلطان المريني ولاية مدينة سبتة للقائد يحيى ابن الفقيه أبي طالب العزفي وعقد له على أسطولها؛ ولم يتأخر يحيى العزفي في التحرك ضد الوجود المسيحي في المضيق حيث قام

عام 716هـ بمحاصرة جبل الفتح (جبل طارق) في محاولة لتحريره من الاحتلال القشتالي، وألحق الهزيمة بأسطول نصراني ببحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وقتل قائده.

ب- تطور الأسطول المريني في عهدي أبي الحسن وأبي عنان

وفي ظل حكم السلطان المجاهد أبي الحسن المريني 731-749/1331-1348) تطورت السياسة البحرية حيث نجحت الجيوش المرينية والنصرية المدعومة بالأساطيل المرينية في استعادة قاعدة جبل طارق سنة 733/1333م التي بنى بها السلطان المريني دارا لصناعة السفن والمراكب؛ وفي سنة 1340م، وفي إطار حملته الرامية إلى تحرير قاعدة طريف من الاحتلال القشتالي الجاثم عليها منذ 1291م، حرك أبو الحسن أسطولا قوامه 140 سفينة، 16 عشر سفينة منها فقط كانت في ملك حفصيي إفريقية و 12 عشر قطعة بحرية في ملك سلطان غرناطة. وقد نجح هذا الأسطول الضخم في إلحاق الهزيمة بالأساطيل الإسبانية (الأراغونية والقشتالية) بمضيق جبل طارق. إلا أن النكسة التي أصابت الجيوش المرينية والنصرية أثناء مواجهة الجيوش القشتالية والبرتغالية المدعومة من قوات مسيحية أخرى في معركة طريف أو معركة الواد المالح (Rio Salado) في 7 جمادى 740هـ/أكتوبر 1340م قضت على آمال المرينيين في فرض نفوذهم على بحر الزقاق. فعلى أثر انتصارهم الباهر مضى القشتاليون وحلفاؤهم في تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى التحكم في مضيق جبل طارق حيث نجحت أساطيل قشتالة وأراغون وجنوة في إلحاق الهزيمة بالأساطيل المرينية النصرية واحتلال الزقاق خلال سنة 743هـ/1342م؛ وفي 3 أكتوبر من نفس العام ضربت الجيوش والأساطيل النصرانية الحصار حول قاعدة الجزيرة الخضراء التي لم يجد الدعم البحري المريني في إنقاذها. فبعد خسارة الأسطول المغربي ل 65 سفينة حربية في محاولة لكسر الحصار، ونفاذ المؤونة ، سلم المحاصرون المدينة للملك القشتالي ألفونصو الحادي عشر في ربيع سنة 744هـ/27 مارس 1344م أي بعد سنتين من بداية الحصار، ولم يكن أمام المرينيين والنصريين سوى توقيع معاهدة سلمية مع قشتالة مدتها عشر سنوات. إلا أن ملك قشتالة لم يحترم المعاهدة حيث ضربت قواته البرية والبحرية الحصار حول جبل طارق سنة 751هـ/1350م، وهو

الحصار الذي رفع بعد موت ألفونصو الحادي عشر وعدد كبير من قواده وجنوده من جراء وباء الطاعون الأسود الذي انتشر في معسكره.

إن الفشل الذي مني به الأسطول المريني في معركة المضيق دفع أبي الحسن إلى مزيد من الاهتمام بتطوير البحرية حيث تذكر بعض المصادر أن السلطان المريني سخر في حملته على إفريقية الحفصية (748-749هـ) نحو 600 سفينة.

ونظرا لأن معظم سفن الأسطول المريني غرقت في مياه سواحل بلاد زواوة (شرق الجزائر) خلال عودة السلطان أبي الحسن من حملة إفريقية، فإن خليفته وابنه السلطان أبا عنان بدل جهودا جبارة في إعادة بناء البحرية المرينية. فمما جاء في شهادة ابن بطوطة في حق أبي عنان قوله: " **مما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد إنشاؤه الأجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر، وهذا في زمان الصلح والمهادنة إعدادا لأيام القرة (** الحرب la guerra**) وأخذا بالحزم في قطع أطماع الكفار، واكد ذلك بتوجهه – أيده الله بنفسه – إلى جبال جاناته في العام الفرط ليباشر قطع الخشب للإنشاء، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء، ويتولى بذاته أعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء**". وفي إطار الاستعداد لحملته العسكرية إلى إفريقية (1357-1358)، وأثناء وجوده بسلا، اهتم أبو عنان بإنشاء السفن كما يستشف ذلك من قول ابن الحاج النميري: " **وفي تلك الأيام أمر أيده بدفع غراب كبير بهدف سوق الخشب من المعمورة، وإعداده بدار الصنعة المشهورة. لتنطلق أحوال الإنشاء، وتكمل صور الأجفان** ". ولم يعتمد أبو عنان على دار الصنعة بسلا فقط، بل أنشأ المراكب بمواضع أخرى ومنها خولان (سيدي حرازم) قرب فاس، إذ يذكر الجزنائي أن المتوكل أباعنان " أمر (...) **بإنشاء جفنين اثنين أحدهما شيطي يجر مئة وعشرين مجذافا، والثاني شلير يجر ستين مجدافا بخولان ودفعا بوادي سبو إلى أن وصلا لمعمورة سلا في شوال سنة ست وخمسين وسبعمئة (756هـ).**

وبالإضافة إلى إنشاء المراكب وتجهيزها وتعميرها، قام السلطان أبو عنان بتقسيم البحرية إلى مجموعة من الألوية أو الأساطيل، كل لواء له قائده ورايته وميناؤه الذي يرابط فيه، وأخضع الأسطول لسلطة القائد الأعلى أو الملند الذي كان مركبه خلال الحملات البحرية أبيض اللون. ويعطينا ابن الحاج النميري لمحة عن الأسطول الذي شارك في حملة أبي عنان على إفريقية حيث يذكر أنه كان يتألف من قطع متنوعة مثل الأغربة والطرائد والشياطي والسلالير والسفن التي كانت تحمل الأفلاك والأملاك والشواني والمراكب والحراقات والقوارب، كما أشار إلى الأدوار التي أسندت للأسطول في تلك الحملة حيث شارك في حصار وإخضاع قاعدة بجاية (المغرب الأوسط/الجزائر)، وكان له الفضل في الاستيلاء على تونس، وخفف الأثقال عن الجيش البري بنقل آلات الحصار الثقال (المجانيق وغيرها) التي استعملت في حصار قسنطينة من بجاية إلى مرسى القل.

ج- الأسطول المريني في زمن الضعف

ورغم الضعف الذي أصاب الدولة المرينية بعد اغتيال السلطان أبي عنان، استمر الأسطول المريني يقوم بدور الدفاع عن سواحل المملكة، بل نجده يشارك سنة 770هـ/1369م في تحرير الجزيرة الخضراء مؤقتا من الاحتلال القشتالي الذي ظل جاثما على أرضها منذ سنة 743هـ/1344م . ولعل انشغال ملك قشتالة بيدرو القاسي بمحاربة القمط هنري منافسه على العرش الذي حصل على دعم البرتغال وإنجلترا هو ما سهل ماموربة المغاربة والأندلسيين كما جاء ذلك على لسان ابن خلدون الذي أضاف بأن السلطان عبد العزيز المريني صاحب المغرب " **أوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على اثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل واستعد الآلة للحصار فنازلها أياما قلائل ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان إليه ونزلوا عن البلد(...) وذلك سنة سبعين** ". إلا الأسطول المريني اختفي بعد موت السلطان عبد العزيز (774هـ/1372م)، وخاصة بعد إقدام النصريين على الاستيلاء على قاعدة

جبل طارق (776هـ/1374م) وعلى سبتة عام 786هـ/1387م و نقل السفن المرابطة بمياه هذه الأخيرة إلى المراسي الأندلسية مما سهل على البرتغاليين مأمورية احتلال تلك القاعدة البحرية الهامة (1415).ثم تسارعت الأحداث حيث اختفى النفوذ المغربي نهائيا من مضيق جبل طارق باستيلاء البرتغاليين عل القصر الصغير (1458) وطنجة وأصيلا (1471)، وإخضاع القشتاليين لقاعدة جبل طارق (1462).

د- تحصين السواحل:

لم تقتصر السياسة البحرية للمرينيين على بناء الترسانات وإنشاء المراكب وتجهيزها وتسخيرها في نقل القوات والمعدات وفي عمليات الحصار، بل شملت أيضا سياسة تحصين السواحل ببناء الأسوار والرباطات والمناور. ففي سنة 658هـ/1260م سور يعقوب بن عبد الحق مدينة سلا من جهة الغرب الذي يقابل وادي أبي رقراق من أول دار الصناعة إلى البحر؛ وفي سنة 685هـ/1286م شيد يوسف بن يعقوب قصبة تطوان بالقرب من ساحل الزقاق، وفي العام الموالي (686هـ/1287م) بنى سور قصر المجاز (القصر الصغير) وركبت أبوابه . وقد تابع أبو الحسن وأبو عنان سياسة تحصين السواحل حيث يذكر ابن مرزوق (المسند الصحيح) أن أبا الحسن جهز السواحل الممتدة من آسفي حتى جزائر بني مزغنة (الجزائر الحالية) بالعديد من المحارس، كما أنشأ العديد من الأبراج ومنها برج الماء في ساحل بحر بسول جنوب سبتة. ويذكر ابن بطوطة أن أبا الحسن وأبا عنان قاما أيضا بتحصين جبل الفتح (جبل طارق) قائلا: " **بنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه القلهرة العظمى بأعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به دار صنعة، وبنى السورالأعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان، أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بناء السور بطرف الفتح، وهو**

أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث إليه العدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة وعمل الله فيه حسن النية ".

خلافا للموحدين لم يتوفر المرينيون على بحرية قوية، إذ اعتمد بنو مرين في بداية على سفن سبتة العزفية في نقل جيوشهم من الضفة الجنوبية إلى الضفة الشمالية لمضيق جبل طارق وخوض بعض المعارك البحرية. وقد حاول سلاطين بني مرين إنشاء بحرية حربية لمواجهة الأساطيل المسيحية، واستطاعوا تحقيق بعض النجاحات أي إلحاق الهزائم بتلك الأساطيل. إلا أن اختلال التوازن بين الأسطول المغربي والأساطيل المسيحية المتحدة (قشتالة + البرتغال + آرغونة + جنوة) وتوجه النصريين إلى عقد اتفاقيات غير مقدسة مع القوى الإيبيرية أدى إلى هزيمة المرينيين وانسحابهم من الأندلس لتتمكن القوى المسيحية من فرض نفوذها في الحوض الغربي للمتوسط. ولعل فشل المرينيين في تحقيق وحدة بلاد المغرب قد انعكس سلبا على مؤسسات الدولة المرينية ومنها مؤسستي الجيش والأسطول حيث دخلت الدولة المرينية في طور الانهيار، وهو الأمر الذي استغلته القوى الأيبيرية للاستيلاء على موانيء الواجهة المتوسطية للمغرب الأقصى.